ـ « كان ثمة رجل عاري الجذع يتدلى ثدياه السمينان كأثداء الزنجيات الغضينات الجلد . ص : ٣٢ » .

ـ « مررنا حين دخلنا برجل مستدير الكرش . ٣٦ » .

ـ « كان قد خلع ملابسه ويقول شيئا بالانكليزية لخادم ذي كرش ضخم . ص : ٤٧ » .

تبدأ الرؤيا الاستشراقية بالانسان في شكله الخارجي الذي يخدش « عين الحضارة » ، وبعد أن تستهجن الانسان وشكله تنفذ إلى فكره وثقافته ، فتتحدث بحضارة « الجوامع ومراكز الشرطة . ص : ١١٩ » . ثم تصل إلى المدينة فتكشف زيفها ومراوحتها في « التقاليد القبلية الشريرة . ص: ٥٨ » .

في الاندماج يضيع « جميل » أصوله الفلسطينية وفي « الاستشراق » يضيع أصوله العربية ، ويعيش واقعه الاجتماعي مثل « سائح بين العرب » لا يلتفت إلا لما يرضي ذاكرة أوربية كولونيالية قرأت عن « الشرق » في كتب تاريخها ثم جاءت إليه لتتأكد من صحة معلوماتها فعادت مرتاحة الخاطر والضمير . يرى « جميل فران » « عجائب الشرق » في اشكالها اللامتناهية ، يرى المرأة الجميلة المسجونة في قفصها الذهبي (ص : ٢١٥) ، و« الشراقوة بعماماتهم الملوثة وقمصانهم الملطخة بالعرق (ص : ١٦٢) ، و« ندب مقتل الحسين وجماهير النساء والرجال التي تمزق الشعر وتلطم الصدور . ص : ٦٢ » . والشاب الذي يقتل اخته دفاعا عن شرفه (ص : ٥٦) ، والعبد المحروم الذي يحاول اغتصاب سيدته (ص : ٢٢٠) وأجواء الحمامات وبيوت البغاء وخدم الفنادق ذوي الأقدام الجميلة ....

يرسم « جميل » المجتمع من وجهة نظر السائح الأوربي المتحضر ويتمادى في وصفه حتى نتساءل أيهما « جميل » الفلسطيني وأيهما « برايان » الانجليزي ، ويعلو صوت الاحتقار حتى نتذكر صفحات الرحالة الأوربيين التي تمتهن كل ماله علاقة بالشرق : « شظية رخامية لامعة تؤرخ بالخط المسماري غزواً دموياً : إلا أن الشظية ملقاة على الدرب ، والكتابة مغطاة بروث الحمير ... شيء مخيف . ص : ١٣٤ » . في إطار الاستشراق وتصادم الحضارات تتحدد شخصيتا الانجليزي والبدوي ، « برايان » و« توفيق » ، الأول وعد الحضارة والعقلانية والثاني وعيد التخلف والاظلامية . مقالان ينفي أحدهما الآخر . إن الفكر المغترب الذي يحكم البنيان الروائي هو الذي فرض شخصية « توفيق » البدوي كي يجعل منها شخصية ـ مناسبة ، تنطق باسم التخلف أمام الحضارة ، تخلف وحضارة وجسر بينهما ، التخلف هو توفيق ، والحضارة هي « برايان » ، والجسر هو « جميل » الذي يفهم لغة الانجليزي ولا يفهم لغة البدوي .

« توفيق » شخصية ـ مناسبة ، تخرج من كلية الحقوق وغاب من جديد في صحرائه : كيف يصف جبرا هذا البدوي ؟

يقول توفيق « القصص والرسم والموسيقى ، ليست إلا من اختلاق المدنية » و« كل فنان ، كل كاتب قصة ، كل روائي ، إنما يطعن بخنجره المسموم جسم الحياة السليم لأنه